رابطة العالم الإسلامي
الأمانة العامة
الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

الثقافة الإسلامية
التحديات الخارجية والداخلية وسبل المواجهة

إعـداد

الأستاذة سيدة محمود محمد

رئيس قسم البحوث باللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل
في المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة - مصر

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية.. الأصالة والمعاصرة

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤ - ٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ
٢٨ - ٣٠ / سـبتمبر / ٢٠١٤ م

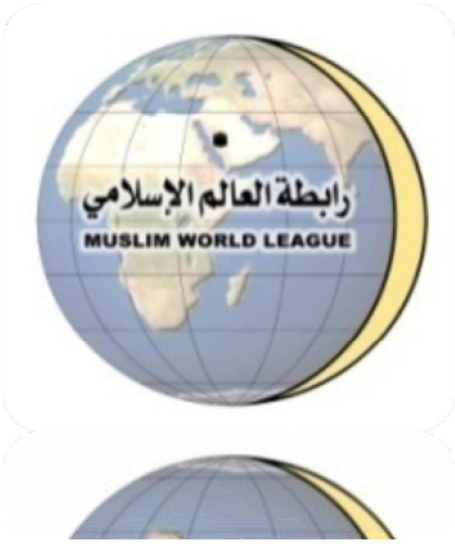

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩- الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ وَ ٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية الموضوع:

- تنبع أهمية الدراسة من المحور الأول الذي تدور حوله، وهو التحديات التي تواجه الثقافة الإسلامية.
- وتزداد الأهمية من خلال المحور الثاني الذي يتناول تداعيات تلك التحديات وسبل مواجهتها بما للمنطقة العربية والإسلامية من إرث حضاري كفيل بإقالة الأمة من كبوتها الحضارية إذا ما رجعت إلى المعين الصافي الذي صلح به أولها.

أسباب اختيار الموضوع:

- أولاً: مدى ما يستحوذ عليه موضوع الثقافة وتأثيرات العولمة عليها من اهتمام دولي، تمثل في عدد ضخم من الندوات والمؤتمرات التي تعقد حول هذا الموضوع، على كافة المستويات الدولية والإقليمية والمحلية، وتسليط الأضواء على تلك المؤتمرات وما ينبثق عنها من توصيات تأخذ مسار التنفيذ بعد ذلك على كافة المستويات.
- ثانياً: الجدل الرهيب الدائر- حول العولمة بوجه عام وبُعدها الثقافي بوجه خاص- بين فئتين، إحداهما ترعرعت في ظل الحداثة الغربية وانبهرت بالغرب - في صورتيه الرأسمالية أو الشيوعية - وتغنت بحضارته وتدعو للتعامل مع العولمة كظاهرة إنسانية إيجابية؛ لا استعمارية توسعية تسعى لتهميش الكل لصالحها، وفئة أخرى تصف العولمة بأنها استلابية قاتلة للحضارات وثقافات الشعوب، ومتجاوزة

لـتراث الشـعوب وحضـاراتها بمـا يحقـق الهيمنـة الغربيـة- وبخاصـة الأمريكية- على النظم الداخلية لكثير من الدول.

مشكلة الدراسة:

في ضوء ما سبق يمكن تحديد مشكلة الدراسة في التساؤل التالي:

في ظل العصر الذي نعيشه-عصر الانفتاح والانفجار المعرفي بـالتزامن مع الأزمة الحضارية التي تعـاني منهـا أمتنـا الإسـلامية والعربيـة- ظهـرت تحـديات كثيرة تنال من مجتمعاتنا في الصـميم، فمـا موقفنـا تجـاه هـذه التحـديات ؟ وهـل يمكن أن نُلقي باللائمة في الأزمة الحضارية التي نعاني منها على الخـارج فقـط ؟ أم أن الداخل له دخل كبير فيما نعاني منه ؟

وينبثق من هذا التساؤل أسئلة فرعية أهمها:

- ما هي التحديات الوافدة من الخارج ؟ وما موقفنا حيالها ؟ هل الاستسلام، أم الرفض ؟ أم أن هناك خياراً ثالثـًا ؟
- ما هي التداعيات التي خلَّفها هذا الوافد بما أضاف إلى السـاحة مـن تحـديات جديدة ؟
- ما هي التحديات الداخلية ؟ وما هي سبل مواجهتها ؟

خطة البحث: تتكون الدراسة من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

الفصل الأول: التحديات الخارجية

- المبحث الأول: الغزو الثقافي.
- المبحث الثاني: مكامن الخطورة في مضمون القيم الغربية بصورتيه الرأسمالية والشيوعية.
- المبحث الثالث: خلخلة القيم وتشويه الثقافة الإسلامية؛ ووسم الشرق بالتخلف.

- المبحث الرابع: مدى نزاهة وموضوعية المنظومة العلمية للدراسات الإنسانية الغربية.

الفصل الثاني: التحديات الداخلية

- المبحث الأول: الجهل والأمية.
- المبحث الثاني: عدم مواكبة التطور الثقافي في العالم.
- المبحث الثالث: الفرقة والتعصب والصراعات الداخلية.

الفصل الثالث: تداعيات هذه التحديات

١- الهيمنة والتبعية.
٢- التغريب والاغتراب.
٣- الهزيمة النفسية.
٤- التطرف.

الفصل الرابع: سبل المواجهة

١- الصدق مع النفس والواقعية.
٢- امتلاك الإرادة.
٣- الاعتزاز بالرصيد الثقافي والحضاري.
٤- التكامل والشمولية.
٥- السعي نحو جذب العقول المهاجرة.
٦- السعي نحو تحسين صورة المجتمعات الإسلامية وإبراز منظومتها القيمية.
٧- تحرير العقل والعلم.
٨- فتح باب الحوار مع من يتفق معنا في الرؤى حتى من بلاد الغرب ذاته.

خاتمة

مقدمة

الثقافة أروع ما أبدع الإنسان على مر العصور، فهي السجل الحقيقي لعلمه وفكره ونمط حياته وعاداته وتقاليده، تزداد بمرور الزمن وعطاء الأجيال اللاحقة، فهي عمل تراكمي، ومنه تنشأ الحضارات وتتميز الشعوب وتصير لها شخصيتها المعبر عنها بهذه الثقافة.

وقد صدرت مجلدات ضخمة تناولت موضوع الثقافة الإسلامية، وكيف يتم تقديم مشروع يجمع بين الأصالة والمعاصرة، أو بالأحرى كيف يكون التراث مشروعاً للنهضة ؟ وقد حاد بعضها عن الجادة ودعا إلى نفض اليدين من التراث جملة وتفصيلاً، والبعض تترَّس بالماضي وتقوقع فيه، وفئة ثالثة هي الأخطر؛ تدعو إلى إعادة تفسير التراث وتأويله بما يتفق مع الحداثة الغربية بصورتيها الرأسمالية والشيوعية، الأمر الذي خلق مجموعة من التحديات لا سيما وقد تبدلت المفاهيم، فالاحتلال صار من «مقتضيات النظام العالمي الجديد»، والتنصير صار «تنويراً»، والاعتداء على الشعوب المسلمة صار «مقاومة الأصولية»، والقضاء على اللغة العربية أصبح «كونية الثقافة»، والخطورة أن قوة الإبهار التي تُطرح بها هذه المفاهيم ذات المنزع الغربي - والأمريكي تحديداً- تعمي الأبصار عن رؤية الحقائق كما هي.

وبقدر ما ضعفت المناعة لدى مجتمعاتنا، تعددت مصادر التحديات التي تواجه الهوية.

والسؤال هنا: ماذا نحن صانعون تجاه هذه التحديات ؟ وكيف نواجه الغزو الثقافي ومحاولات طمس الهوية وتشويه الشخصية الإسلامية ومحو عناصرها الذاتية ؟ كيف نجابه هذه التحديات في الوقت الذي تغفل فيه الأمة عن اللوذ

بالحصن المنيع: حصن العقيدة التي تحمي، والشريعة التي تسود ؟

إننا مطالبون بمواجهة تحدياتنا الداخلية بقوة أكبر من التذرع بالخارج، فالخارج ليس وحده المسؤول عن نكوصنا الحضاري. إننا بحاجة إلى الكثير من الجهد والوعي والتسلح بالمعرفة، ويصاحب ذلك كله اليقين بالله.

سنحاول تحديد ماهية التحديات الخارجية وتسليط الضوء على أبرزها، كما تناولنا بعض التحديات الداخلية والتي تسهم بشكل مباشر في الأزمة الحضارية التي نحن بصددها، كما أشرنا إلى بعض تداعيات هذه التحديات بشقيها الخارجي والداخلي، والتي تكاتفت لتُلقي بظلالها المَقيتة على أوضاع مجتمعاتنا؛ من ضعف ثقة بالنفس، وهزيمة نفسية، وشعور بالاغتراب، وختمنا باقتراح عِدةَ سبُلٍ إن تم تفعيلُها فسوف تؤتي أُكلها بإذن ربها.

الفصل الأول: التحديات الخارجية

التحدي الأكبر لهوية الأمم والشعوب كافة-لا الأمة الإسلامية وحدها-هو السياسة الاستعمارية الجديدة التي تسود العالم اليوم، والتي تهدف إلى تنميط البشر والقيم والمفاهيم وفق معاييرها الجديدة، والسعي إلى صياغة هوية شمولية تفرضها في الواقع الإنساني، في إطار مزيف من التوافق القسري والإجماع المفروض بالقوة، ومن يعترض فكأنما خرج عن الإجماع الدولي، بل وتوصف ثقافته بالتخلف والجمود، وسنتناول في هذا الفصل ماهية هذا الغزو، ونتعرف على أبرز القيم التي يراد تنميط المجتمعات وفقها، فضلاً عن التحدي الأكبر في هذا الجانب وهو الجانب المعرفي المتعلق بأسس النظريات العلمية في الدراسات الإنسانية؛ والتي نتلقاها عن الغرب كمسلَّمات ونبني عليها.

المبحث الأول: الغزو الثقافي

وهو سياسة قهر الثقافة الأقوى لثقافة أخرى أضعف منها[١]، وقد يطلق عليها مصطلح «العولمة» في بعدها الثقافي، إلا أننا نرى أنها أبعد من ذلك، ولاسيما في علاقتها بالعقيدة والميراث الثقافي للأمة، فهي تجسد حالة صراع إيديولوجي يكون البقاء فيه للأقوى، وكما يقول السيد ياسين: «لابد أن نفرق بين سياسات العولمة Globalization، وإيديولوجية العولمة Globalism؛ ومعناها قيم العولمة، والتي تحوي قيماً معلنة وقيماً خفية، فالمعلنة: حرية السوق وكأنها الحل السحري لمشكلة الإنسانية، أما الخفية فهي أن العولمة ببساطة تقوم على ما يمكن أن يطلق عليه الداروينية الاجتماعية، وهي مأخوذة

(١) انظر كتاب أ. د/ عبد الفتاح مصطفى غنيمة، مستقبل الثقافة العربية في ظل العولمة، سلسلة فكر المواجهة، العدد العاشر، رابطة الجامعات الإسلامية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤، ص١١٧.

من فكرة داروين: «البقاء للأصلح»»[١].

فالعولمة من المنظور الثقافي أو عولمة الثقافة: «محاولة التقارب بين ثقافات شعوب العالم المختلفة بهدف إزالة الفوارق الثقافية بينها ودمجها في ثقافة واحدة ذات ملامح وخصائص واحدة»[٢]، وهذا التعريف يحمل معنى هيمنة الثقافة الأقوى على الثقافات الواهنة؛ إما عن طريق التفاعل الثقافي؛ أو الامتزاج الثقافي عبر تجاوز الحدود الجغرافية، والنتيجة واحدة وهي طغيان ثقافة عالمية واحدة على الثقافات القومية وغزوها في عقر دارها؛ ومحاولة إذابتها والحلول محلها.

ويعبر الغزو الثقافي عن آليته بالتنميط الثقافي الذي يعني إنتاج نمط ثقافي واحد وفق إرادة المنتِج المهيمن، ويكون ذلك عبر وسائل السيطرة المختلفة كالتقنية والمعلوماتية والاتصالات ولا سيما الأقمار الصناعية، وأخطر مظاهر التنميط وسيلةً: هو شيوع ثقافة الصورة بديلاً عن ثقافة الكلمة، وانتشار الكتاب الإلكتروني (أقراصCD-ROM) بديلاً عن الكتاب المطبوع؛ مما يضع الأطفال والناشئة أمام الاستبداد التقني الذي يقلل الخيال والإبداع بعد ذلك، ناهيك عن سرقة الوقت، وهدر الطاقة الجسمية والمشاعر والأفكار، ووضع هذا الجمهور في حال تعطيل ذهني وثقافي أمام منتجات التنميط الثقافي وقوتها الهائلة، غير أن خطورة التنميط تبلغ مداها الأقصى عند تقبُّلها من الداخل حين تفلح أدوات الهيمنة ووسائل السيطرة في (صناعة العقول) [٣].

---

(١) السيد ياسين، الحوار الحضاري في عصر العولمة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٥، ص٢٢٤.

(٢) جلال أمين، العولمة، سلسلة اقرأ، رقم ٦٣٦، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨.

(٣) رابط الموضوع: http://www.alukah.net/culture/0/890/#ixzz32IVyK5fJ

ولا يهمل الغزو الثقافي الكتاب المقروء؛ بل يحرص على إغراق أسواق الدول النامية بآلاف الكتب والمجلات والصحف التي تمجد قيم الغرب، كالخبر الذي أوردته جريدة الشرق الأوسط بعنوان: «واشنطن ترسل كتباً لخمسة آلاف مدرسة بالشرق الأوسط»، وأورد الخبر أنه في إطار مبادرة الإصلاح الديمقراطي بالشرق الأوسط؛ يتم توزيع كتب على خمسة آلاف مدرسة بالعالم العربي من المدارس الابتدائية للصفين الثالث والرابع، وحسب ما ورد بنص الخبر؛ أن تلك الكتب تركز على تغيير المفاهيم المرتبطة بالتطرف الديني والعقائدي والثقافي[١].

المبحث الثاني: مكامن الخطورة في مضمون القيم الغربية بصورتيه الرأسمالية والشيوعية

وهو الوجه الآخر للغزو الثقافي، فالتحدي ليس في مجرد الغزو فحسب، وإنما في مضمون القيم التي يفرضها المسيطر، فلو كان يفرض قيماً إنسانية تتسق مع الفطرة السليمة؛ لكان الأمر أخف وطأة، فالحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أولى بها، إلا أن الخطر صار يتهدد الوجود الإنساني ذاته جرَّاء هذه القيم التي يراد استعباد البشر بها بدعوى الحداثة، والتي وصلت إلى حد تفكيك المبادئ المؤسِّسة للقيم التي تعارف عليها البشر منذ بدء الخليقة؛ كتعريف الاجتماع والمجتمع، وماهية الوظيفة التي تقوم بها الأسرة، ومعايير البناء الأسري، وتأسيس صراع بين الرجل والمرأة حول مفهوم الحرية، كفكرة تملُّك المرأة لجسدها؛ ورفع شعار «جسدك مِلكك Your body is your own»[٢]، وما استتبع هذا من ثورة جنسية هائلة وإباحية وصل الغرب بسببها

---

(١) جريدة الشرق الأوسط، ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٣.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر: مثنى أمين الكردستاني، حركات تحرير المرأة =

إلى حافة الهاوية؛ وبات مهددًا بالفَناء، حالُه في ذلك حال كل الأمم التي شاعت فيها الفواحش، وانتكست فيها الفطرة، ولم يقف الأمر عند حد العلاقات الطبيعية غير الشرعية؛ بل تجاوزه إلى القول بأن «اللواط والسِّحاق والعلاقات الجنسية خارج نطاق الزواج لن يُنظر إليها على أنها بدائل شاذَّة؛ بل إن البشرية يمكن أخيرًا أن تعود إلى إباحيتها الجنسية متعدِّدة الأشكال»[١].

فضلاً عن المناداة بالمساواة بين الرجل والمرأة، فتم «اسْتِلابُ لفظة الجَنْدَر gender ومَحْوُ دلالتها الأصلية لإعطاء صورة محايدة لها، تحاشيًا وتهميشًا لمفهومَي الذكر والأنثى، لرفض أي نوع من التمييز بينهما، أو رفض أي نوع من توزيع الأدوار حتى داخل الأسرة على أساس الجنس «Sex» البيولوجي»[٢].

وبعد تفكيك مفهومي الذكورة والأنوثة؛ انتقلوا إلى تفكيك مفهوم الأسرة الذي يقره العقل والدين فقالوا: «لم تعد الأسرة ضرورية كما كانت بالأمس، لا بل إنها أسوأ من مجرد مؤسسة عديمة الجدوى؛ لأنها تمنع النساء العاملات من القيام بعملهن بمزيد من الإنتاجية والجد، ولم تعد الأسرة ضرورية لأفرادها أنفسهم؛ لأن مهام تربية الأطفال- وقد كانت بالأمس ملقاة على عاتق الأسرة- أخذت تنتقل الآن إلى عاتق الدولة في مراكز الرعاية النهارية، وعلى أنقاض الأسرة السابقة سوف يُبنى شكلٌ للعلاقات بين الرجل والمرأة جديد كليًّا، لقد

=

من المساواة إلى الجندر، دار القلم، الكويت، ٢٠٠٤، ص١٦٣.

(1) Alison Jagger, Feminism and Philosophy. Littlefield, Admas & Co.: Totowa, N.J., 1977. P. 13.

(٢) محمد هيثم الخياط، المرأة المسلمة وقضايا العصر، سفير الدولية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٨٥.

انتهى عهد عبودية المرأة المنزلية! فالمرأة لن تعتمد بعد الآن على زوجها، وإنما سوف تعتمد على عملها، ولن يعيلها زوجها وإنما ساعِداها القويان، ثم إن الزواج سوف يُطهَّر من كافة مقوماته المادية وأثقاله المالية، فمن الآن وصاعدًا وبعد أن يزول الزواج الديني - الذي كان «زواجًا لا ينفصم» ليتضح أنه خدعة- ليحل محله اتحاد حر نزيه بين الرجال والنساء، وهي علاقة ستضمن للإنسانية كافة المباهج التي يوفرها ما يسمى «الحب الحر»»[١].

والعجيب أن هذه الأفكار والممارسات الشاذة لم تعد وقفًا على المؤمنين بها في الغرب، بل تحولت إلى خط بارز في مشروع الهيمنة الغربية على العالم؛ بما جعل حرية الشذوذ جزءاً أصيلاً من المفاهيم الغربية لحقوق الإنسان، ومن ثم فأسوأ تحدٍّ للإنسانية جمعاء وليس للمسلمين فحسب؛ هو أننا بصدد صياغة هذه القيم لتكون قواعد أخلاقية للعالم تحت مسمى: «قواعد أخلاقية كونية» لما أسموه بالمجتمع الكوني العالمي، فيقولون: «إذا كنا سنتحرك بنجاح إلى القرن الحادي والعشرين وعصر الوعي الكوني، فإن صياغة أخلاق كونية وروح ثقافية كونية جديدة ينبغي أن تُستكشف وتتمُّ تنميتُها»[٢].

وتجسَّد هذا بوضوح في الأمم المتحدة التي يُفترض أنها مِلْكٌ للجميع، ففي الاجتماع الذي عقده مجلس حقوق الإنسان بجنيف في ٧ من مارس ٢٠١٢ تحت عنوان: «العنف والتمييز المبني على التوجه الجنسي والهوية الجندرية»، أكد الأمين العام «بان كي مون» على موقفه من حقوق الشواذ، حيث عدَّد

---

(١) الحوار المتمدن، العدد: ٢٩٤٠ – ٢٠١٠م،

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=%2043552#

(٢) السيد ياسين، الحوار الحضاري في عصر العولمة، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٢٧٨.

«المآسي» التي يتعرضون لها: من تفريق في المعاملة، واستبعاد من الوظائف، معتبراً إياها عنفاً وتمييزاً ضدهم، و انتهاكاً للقانون الدولي، ثم قال: «وأنتم يا أعضاء مجلس حقوق الإنسان؛ يجب عليكم أن تستجيبوا لأصوات الشواذ المعذبين، والسحاقياتlesbian ، واللوطيين gay، وأصحاب التوجهات الجنسية المزدوجة bisexual، والمتحولين جنسياً transgender، ودَعوني أقُلْ لهم: لستم وحدكم، كفاحُكم لإنهاء العنف والتمييز نشارككم فيه، كل هجوم عليكم هو هجوم على القيم العالمية التي أقسمتُ أنا والأمم المتحدة على حمايتها وتأييدها، أقف اليوم معكم، وأدعو كل الدول والشعوب للوقوف معكم كذلك»، وفي ختام كلمته كرر ما ورد في تقرير الاجتماع: «يجب أن نوقف العنف الذي يستهدف الشواذ، وأن نقضي على تجريم العلاقات المثلية، ونمنع التمييز، ونُعلم الشعوب»! وبيَّن أنه يعتمد على مجلس حقوق الإنسان في تحقيق ذلك[١].

وعُقد في أوسلو في ١٥ من أبريل ٢٠١٣م مؤتمرٌ بعنوان: (حقوق الإنسان: التوجه الجنسي والهوية الجندرية)، قال فيه «بان كي مون»: «بعض الناس سيعارضون التغيير، سيتذرعون بالثقافة والعادات والدين في دفاعهم عن هذا الوضع، مثل هذه الأمور تستعمل لتسويغ العبودية وزواج الصغيرات والاغتصاب الزوجي وختان الإناث، أنا أحترم الثقافة والعادات والدين، لكنها لا يمكن أن تسوغ المنع من الحقوق الأساس»، ثم كرر وعده للشواذ بطوائفهم

---

(١) انظر الرابط:

http://www.un.org/apps/news/infocus/sgspeeches/statments_full.asp?statID=1475#.Upd3psR3ZBw

المختلفة بمساندتهم بصفته الأمين العام للأمم المتحدة[١]، وقال: «أنا متعهد بقيادة حملة عالمية بالشراكة مع مكتب الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، وأدعو الآخرين للمشاركة»[٢].

المبحث الثالث: خلخلة القيم وتشويه الثقافة الإسلامية؛ ووسم الشرق بالتخلف.

رغم أن الحضارة الغربية تنعم بمنجزاتٍ أسهم الشرق فيها إسهاماً فاعلاً، إلا أنها دائما ما تصف الشرق بالتخلف. وتزخر الدراسات الغربية بالنظريات التي تُمَجد الغربي وتُلحق كل نقيصة بالآخر، ولم تُشر مطلقاً إلى السبب الحقيقي لتخلف هذا الآخر؛ وهو استعماره واستنزاف موارده واغتصاب ثرواته، بل «ظهرت النظريات العنصرية التي تُرجع أسبابَ التخلف في عالم الجنوب إلى عوامل عِرقية أحياناً تتعلق بمركزية الإنسان الأوروبي وجنسه الآري، وعوامل جغرافية أحياناً حيث يتَّسم سكان الجنوب بالخمول والكسل عكس سكان الشمال، وعوامل دينية أحياناً، بزعمهم أن الدين الإسلامي دين محافظ يرفض التطور ويؤمن بالعنف، وأنه نقيض النصرانية[٣] التي تدعو إلى العمل، لذا فالمجتمع الصناعي في الدول الغربية المتقدمة يشكل أنموذجاً

(١) لا بصفته الشخصية.

(٢) نص كلمته على الرابط:

http://www.un.org/News/Press/docs/2013/sgsm14944.doc.htm

(٣) صاغ «فيبر» أنموذجه المثالي للمجتمع الحديث، استناداً إلى العقيدة البروتستانتية التي يعتبر أنها أدت إلى تطور الرأسمالية الصناعية الغربية، لأنها عقيدة تحث على التحرر، وبالتالي فإن قيمها ومعتقداتها المثالية هي أساس ظهور المجتمع الرأسمالي الحديث. لمزيد من التفاصيل حول إضعاف القيم الإسلامية وتمجيد المسيحية؛ انظر: الباب الأول من كتاب د/ محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتب وهبة، القاهرة، ١٩٨٥.

مثاليـًا، على البلدان النامية أن تقتدي به في التنمية والتحديث»[١].

وهناك حملات واسعة وطعن فيما يقدمه الإسلام من ضمانات للحريات العامة والخاصة، وحقوق الأقليات السياسية والدينية والنساء، كما أثيرت مسألة الرِّدة وعلاقتها بالحرية السياسية، ومقابل هذا التوهين لقدرات الإسلام وزعمهم أنه عقبةً في طريق تقدم الشعوب ونيلها حقوقها؛ انصَّبت الجهود- خاصة بعد سقوط الشيوعية- على تشويه الإسلام[٢].

والذي يزعم الحيادية منهم يتجه صوب «اتهام الإسلام بالعجز عن استيعاب التطورات الحديثة، وأن نجاحه في تكوين مجتمع صالحٍ في الماضي؛ قد اعتمد على ظروفٍ ملائمة لطبيعته آنذاك، أما اليوم بعد أن تبدَّلت طبيعة المجتمعات واختلفت أنماط الحياة فيها؛ يعجز الإسلام عن مواجهة المتغيرات الجديدة، ويدللون على هذه المقولة الزائفة بتخلف المجتمعات الإسلامية المعاصرة»[٣].

ويمتد الأمر إلى وسائل الإعلام التي تركز دومـًا على تصوير الإنسان الغربي على أنَّه هو المتحضِّر المثقَّف المتحرِّر صاحب العقلية الفذَّة، بينما المسلِم - العربي خاصَّة - هو المتخلِّف الرجعي الرافض لأي نوْع مِن أنواع التحرُّر والتقدُّم!

---

(١) هيجوت، ريتشارد، نظرية التنمية السياسية، ترجمة حمدي عبد الرحمن، محمد عبد الحميد، عمان، المركز العلمي للدراسات السياسية، ٢٠٠١، ص٤٤.

(٢) الشيخ راشد الغنوشي، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، دار المجتهد للنشر والتوزيع، تونس،٢٠١١، ص١٣.

(٣) د/ جعفر عبد السلام، الإسلام والعولمة، سلسلة فكر المواجهة، العدد ١٠، رابطة الجامعات الإسلامية، ٢٠٠٤م، ص٣١.

يقول روجيه غارودي: «من الضروري في الوقت الحاضر؛ التدقيق في ثقافة الغرب وحضارته ومسلَّماتها ودور الغرب المدمر للثقافات الأخرى؛ انطلاقاً من الفكرة البغيضة بأنه (شعب مختار)، التي يستتبع رفضاً للآخر وإبادته، وقد تبناها الغرب لينكر غيرية الأشكال الإنسانية الأخرى أو يدمرها»[١]، وروح الاستعلاء هذه تلمسها بقوة في مقولة الرئيس الأمريكي (توماس جيفرسون): «الأمريكيون شعب الله المختار، لهم الحكم والهيمنة اختياراً أو قوة أو قسراً»[٢].

وهكذا أعطى الغربُ لنفسه الحق في أن يصِفنا بالهمجية والتخلف، ويصف ثقافتنا بالرجعية والظلامية، بينما يمثل هو المدنية والعلم والتقدم، وأنه بهيمنته علينا إنما يقوم برسالة تاريخية تجاهنا حيث يحمل لنا مِشعل الحضارة.

المبحث الرابع: مدى نزاهة وموضوعية المنظومة العلمية للدراسات الإنسانية الغربية

لا ريب أن الدراسات الحديثة في المجال الإنساني التي تقوم مؤسساتنا التعليمية في عالمنا الإسلامي على تقديمها للشباب المسلم - عماد النهضة الثقافية في المستقبل- تمثل مجموعة النظريات التي طرحها الفكر الغربي إجابة عن تحدياتٍ واجهها المجتمع الأوروبي والأمريكي، ولا تمثل تحديات المجتمع الإسلامي ولا الرؤية الإسلامية في قضاياه، يترتب على هذا تخريج جيل من الشباب يعتقد أن المفاهيم الغربية المطروحة هي الإجابة الوحيدة عن كل هذه التحديات، بما يجعل المسلم يواجه الحياة والمجتمع بمفاهيم باطلة،

---

(١) المثني أمين الكردستاني، مرجع سبق ذكره، ص٢٦٢.

(٢) مصطفى الطحان، العولمة تعيد صياغة العالم، المركز العالمي للكتاب الإسلامي، الكويت، ١٩٩٩ص١٧.

ثُلة قليلة فقط هي التي يتبدى لها هذا الزيفُ، بينما تظل الغالبية على وهم الحداثة. ويكشف الدكتور محمد عبد الله العربي عن ذلك فيقول: «لقد أدركتُ كما أدرك غيري من علماء أوروبا أنفسهم، أن هذه النظم التي عكفتُ على دراستها وتدريسها أكثر من ثلاثين عاماً؛ كانت من أهم الأسباب في كل ما حاق بالبشرية ومازال يَحيق بها من ويلات وكوارث» وذلك لفساد المنهج البشري، فالنظم الأوروبية تقوم على اضطراب وتناقض[١]، ومع ذلك فالغالبية العظمى ممن نُطلق عليهم مفكرين ومثقفين؛ مازالوا يعتبرون أن الوجاهة العلمية والثقافية بأن يولوا وجوهم قِبل الاشتراكية أو الرأسمالية، الإشكالية الآن أننا صِرنا لا نعاني فحسب من أسْر وهيمنة النظريات الغربية والتي صارت قِبلة للباحثين لدينا في مجال الدراسات الإنسانية، وإنما صرنا نعاني من إشكالية أخرى؛ وهي خُلو تلك العلوم من الحياد والموضوعية العلمية، رغم الواجهات التي تختفي وراءها وادعائها الموضوعية والحيادية، وليس هذا من قبيل الادعاء أو خضوعاً لنظرية المؤامرة؛ بل إن فَجاجة الوضع فجَّرت حركات تحررية في بلدان الغرب ذاتها تطالب بتحرير تلك العلوم من الهيمنة السياسية والاقتصادية عليها من قِبل رجال المال والحكم، كالحركة التي ظهرت في أمريكا باسم «حركة تحرير علم الاجتماع» والتي وضعت قائمةً بِاسم كبار علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد المشاهير؛ واتهمتهم بأنهم صاروا جزءاً من المجمع العسكري الصناعي، وأطلقوا عليه اسم: «المجمع العسكري الصناعي الأكاديمي»، وأوضحت الحركة أن هؤلاء العلماء ضمن روابط علمية يديرها صفوةُ الكبار الذين يتمتعون بنفوذٍ واسعِ المدى، وقد صارت هذه الروابط وثيقةَ

(١) أنور الجندي، سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٤، ص١٠٠.

الصلة بأجهزة الدولة والمصالح الحكومية، وهي التي توزع عقود العمل على الباحثين ومن ثم الميزانيات المخصصة للبحوث، ويَصدق ذلك بوجهٍ خاص فيما يتعلق بعلم الاجتماع والاقتصاد والعلوم السياسية[١]. وقد أصدرت هذه الحركة بياناً بعنوان: «علم الاجتماع الذي يساوي البِغاء الثقافي» يجرد علم الاجتماع الأمريكي تماماً من هالات الموضوعية والحياد التي يرفعها كشعاراتٍ له، وعنوان البيان واضح الدلالة على مضمونه، ويستهله بقوله: «تعاني المعرفة الحديثة أزمة عميقة؛ ذلك أن المثقفين يضعون أنفسهم أكثر وأكثر في خدمة من يقهرون ويسيطرون على الآخرين، وهذا الاتجاه قد وصل إلى نقطة اللاعودة، فهناك علماء مشاهير في العلوم الاجتماعية كرَّسوا حياتهم المهنية لمديري مصانع الأسلحة ومساعدة الهيئات الحكومية المنوط بها تنفيذ الأهداف التي تسعى لتحقيقها السياسة الخارجية الأمريكية»[٢]، كما أصدرت هذه الحركة في أول سبتمبر ١٩٦٩ قرارين بالغَي الأهمية[٣] يوضحان مدى هيمنة رأس المال على العلم وتطويعه لصالح الطبقة الرأسمالية لقهر شعوب العالم الثالث، وهنا يثور التساؤل حول انعكاس هذا التسييس للعلم على علمائنا، والذين يعتبرون النظريات الغربية مسلَّمات ينطلقون منها لتشخيص علل مجتمعاتنا.

(١) السيد يس، مرجع سبق ذكره ص٢١٠.
(٢) لقراءة ترجمة البيان كاملا انظر: السيد يس، المرجع السابق، ص٢١٣:٢١١.
(٣) للإطلاع على نص القرارين انظر: السيد ياسين، المرجع السابق ، ص ٢١٥:٢١٣.

الفصل الثاني: التحديات الداخلية

إن الواقع الذي تعيشه بُلدان العالم الإسلامي؛ يوفر الفرص المواتية أمام تغلغل التأثيرات السلبية للعولمة الثقافية؛ لأن مقومات المناعة ليست بالدرجة الكافية التي تقي الجسدَ الإسلامي من تداعيات هذه الظاهرة؛ بما يَخلق لدينا تحدياتٍ داخليةً علينا مواجهتُها بشجاعةٍ، وعدمِ الهروب منها بالتعلل إما بالعجز عن مواجهتها؛ أو أنها غير داخلة تحت السيطرة لأنها ترتبط بالخارج، والتحديات الداخلية متعددة، أخطرها على الإطلاق: الجهل؛ والأميةُ أصل الداء، وحتى في الأوساط العلمية ثمة فجوة معرفية رهيبة تفصل بيننا وبين الخارج، والأسوأ من ذلك كله: الفرقة والتعصب والصراعات الداخلية التي ما فتئت تُطل برأسها كلما بدت منا أية بادرة للنهوض من كَبوتنا.

المبحث الأول: الجهل والأمية

في الوقت الذي لم تعد فيه الأمية مشكلة في جزء كبير من دول العالم باعتبارها مرحلةً تجاوزها الزمن، ووصلت نِسب الأمية إلى (صفر) في المجتمع الأمريكي، و٣٪ في المجتمعات الأوربية، وهناك تقرير صادر عن الإلسكو يؤكد أن الدول العربية تتصدر المرتبة قبل الأخيرة عالميًا من حيث انتشار الأمية حيث تتقدم على الدول الأفريقية[١]، والإشكالية في التقرير السابق أنه جعل الثقافةَ والدينَ ضمن أسباب هذه الأمية؛ حيث أورد «أن المعوقات التي تقف دون مشاريع محو الأمية الكثيرة المنتشرة في العالم العربي؛ تتلخص في عدم تمكُّن الأولياء من تغطية نفقات التعليم، ثم الأسلوب التعليمي المتدني وضعف

(١) عماد عبد الراضي، نسبة الأمية في العالم العربي مخيفة،جريدة الأهرام القاهرية.

تأهيل المعلم، والمعوقات الثقافية والاجتماعية والدينية أحيانـًا، كما أن الربيع العربي الذي انطلق سنة ٢٠١١ في تونس؛ شغلته المطالب الاجتماعية المُلِحّة والحراك الاجتماعي المتفاقم والإرادة السياسية المتذبذبة؛ عن وضع خطط ومشاريع عملية لمحو الأمية، ولذلك تطالب الإلسكو الدولَ العربية بوضع الأمية ضمن أولوياتها المُلِحة»[١].

ووفقـًا لتقديرات هيئة اليونسكو، فإن نسبة الأمية في الدول العربية وصلت عام ٢٠٠٠ إلى ٤٠ ٪ تقريبـًا، حيث شكَّلت نسبة الذكور أقل قليلاً من ٣٠ ٪ للذكور، ونسبة الإناث حوالي ٥٢ ٪ [٢]. وفي العالم الإسلامي الأمر أشد خطورة، ولا يقتصر على الأمية، بل يتعداه إلى الجهل حتى في أوساط المتعلمين، إذ تقول إحصائيات الإيسيسكو التي تتطابق مع إحصائيات اليونسكو: «إن نسبة الأمية في دول العالم الإسلامي الـ ٥٧ تتراوح بين ٧٠ ٪ في وسط الذكور، و٨٥ ٪ في وسط الإناث، وحتى على مستوى المتعلمين؛ تعاني الأمة الإسلامية من حالة شديدة من ضعف الثقافة المتكونة عن طريق القراءة، إذ تراجعت نِسب القراءة على مستوى الكبار والصغار الذين حولوا وجهة ثقافتهم إلى الثقافة المسموعة والمرئية؛ والتي لا تنتقي شيئـًا مما يَرد عليها من الغث الكثير مع نسبة ضئيلة من السمين».

وفي أواخر إحصائيات منظمة التربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) والتي تعلقت بقياس ارتباط الأمم بالقراءة؛ أظهرت أن متوسط قراءة الطفل في العالم العربي لا يتجاوز ٦ دقائق في السنة خارج المنهج الدراسي، و يقرأ كل ٢٠ عربيـًا كتابـًا

(١) المرجع السابق.

(2) www.unesco.org/statistics

واحداً، بينما يقرأ كل بريطاني ٧ كتب أي ما يعادل ما يقرأه ١٤٠ عربياً، ويقرأ كل أمريكي ١١ كتاباً أي ما يعادل ما يقرأه ٢٢٠ عربياً، بينما بيَّنت نفس الإحصاءات السببَ في ذلك؛ إذ أظهرت أن «معدل ما يقضيه الطفل العربي أمام التلفاز؛ أعلى مما هو عليه الطفل الأمريكي والأوروبي»، ولا يَخفى على أحد منا أن الأمية هي المصدر الأساس لكثير من تلك الظواهر التي تُعيق النموّ وتشُدّ المجتمعات إلى التخلف؛ لأن الفقر يأتي في أحد مصادره من الأمية، والجهل أساسه الأمية، والمرض في أحد أسبابه ناتج عن الأمية، وسوء الأحوال مرجعُه الأمية التي تَحرم الإنسان من معرفة حقوقه وواجباته، وتَحول بينه وبين الإسهام في خدمة مجتمعه والحفاظ على مصالحه العليا، وغالباً ما يكون اضطراب حبل الأمن ناتجاً عن الأمية، سواء بمفهومه التقليدي أو بمدلوله العام، وهو الجهل بالقانون بالنسبة لكثير ممّن يرتكبون الجرائم التي تدخل تحت طائلة القوانين الجارية، أو الجهل بحقائق الدين بالنسبة لكثير ممّن يمارسون الإرهاب تحت غطاء ديني لوقوعهم تحت تأثير التطرف والتشدد والغُلو في فهم النصوص الدينية[١].

المبحث الثاني: عدم مواكبة التطور الثقافي في العالم

صار من الحقائق الثابتة انتقالُ الإنسانية عبر عملية معقدة ومُركَّبة - شِئنا أَم أَبينا - صَوب صياغة مجتمع عالمي جديد تحت تأثير ثورة كونية[٢] تمثلت بداياتها الأولى في ظهور (الثورة العلمية والتكنولوجية)، والتي جعلت العلمَ - ولأول مرة في تاريخ البشرية - قوةً أساسية من قوى الإنتاج تُضاف إلى الأرض

(1) http://www.saudiinfocus.com

(٢) في التعاقب التاريخي للثورات المتعددة التي شهدتها الإنسانية؛ تأتي هذه الثورة عقب الثورة الصناعية.

ورأس المال، وتدريجياً طال التغييرُ البِنَى التحتية للمجتمعات الصناعية المتقدمة وأنماطَ تفكيرها وأسلوبَ حياتها، لتنتهي مرحلةُ مجتمع «ما بعد الصناعي» التي سادت في الستينيات، ليظهر «مجتمع المعلومات أو المعرفة»، وهو مصطلحٌ أكثر دقة يَصف التحولات العميقة في المجتمعات الغربية، والتحدي الآن هو مدى قدرتنا على استيعاب المعرفة العالمية المعاصرة سواء في التكنولوجيا أو في الاقتصاد أو في العلم بوجهٍ عام، فمادام العالم انتقل إلى «مجتمعات المعرفة Knowledge Societies»؛ حيث تصبح المعرفة الأساسَ الأول في توليد الثروة، وقوة الدولة في قوتها المعرفية[١]، ولاشك في أن الفجوة هائلة بيننا وبين الغرب في جانبين:

١) أننا لا نملك سياسة معرفية Knowledge Policy تمكِّننا من إدارة المعرفة بالشكل الذي يجعلنا نصل إلى مجتمع المعرفة المنشود.

٢) ضَعف القدرة على الإسهام في إنتاج المعرفة العالمية.

أما بالنسبة للأول؛ فالتحدي القائم أمامنا هو كيف نقيم بِنْية تحتية معرفية تسمح لنا باستيعاب المعرفة المعاصرة؟ فمن أسباب تعثر محاولاتنا في النهوض الثقافي: «عدم توفير بنية تحتية ثقافية لها، واقتصار الموضوع على محاولات استهلاكية من هنا وهناك لنقل وشراء منتجات ومظاهر الحداثة الغربية فقط، دون الذهاب بعيداً إلى فهم وإدراك المعطَى والمناخ الثقافي وجدلية الأفكار التي رافقت التطور الغربي منذ بداياته الأولى»[٢].

---

(١) السيد ياسين، مرجع سبق ذكره، ص٢٣٠.

(٢) نبيل علي صالح، العرب بين الحداثة والتحديث: أسباب تخلف العرب عن مواكبة الحداثة الحقيقية http://minbaralhurriyya.org/index.php/archives/5804

وبالنسبة للثاني فحدِّثْ ولا حرج عن تخلف المؤسسات البحثية والتعليمية في العالم الثالث؛ وفي القلب منها المنطقة العربية، فباستخدام أي من المؤشرات الكمية، يمكن التدليل على صحة هذا القول برصد عدد أساتذة الجامعات -مثلاً- الذين يستخدمون شبكة المعلومات الدولية في بحوثهم؛ مقارنةً بأي باحث في الخارج، وإذا تحدثنا عن مجال البحث العلمي في منطقتنا مقارنةً بالعالم «حسب بعض الدراسات؛ فإن العالم ينفق حوالي ٢.١ ٪ من مجمل دخله الوطني على مجالات البحث العلمي، أي ما يساوي ٥٣٦ بليون دولار، ويقدَّر إنفاق الولايات المتحدة الأمريكية واليابان والاتحاد الأوروبي على البحث والتطوير بما يقارب ٤١٧ بليون دولار، وهو ما يتجاوز ثلاثة أرباع إجمالي الإنفاق العالمي كله على البحث العلمي، والولايات المتحدة وحدها تنفق سنويًا على البحث العلمي أكثر من ١٦٨ بليون دولار، أي حوالي ٣٢ ٪ من مجمل ما ينفق العالم كله، وتأتي اليابان بعد الولايات المتحدة بـ ١٣٠ بليون دولار، أي ما يوازي أكثر من ٢٤بالمائة من إنفاق دول العالم، ثم يتوالى ترتيب دول العالم المتقدم: ألمانيا، فرنسا، بريطانيا، إيطاليا، كندا، ليكون مجموع ما تنفقه الدول السبع أكثر من ٤٢٠ بليون دولار، ففي هذه الدول السبع: مليونان و٢٦٥ ألف باحث، يمثلون أكثر من ٦٦٪ من مجموع الباحثين في العالم، ويكلف كل باحث منهم حوالي ١٨٥ ألف دولار في السنة، أما باقي دول العالم (ومنهم العرب)، فلا يتجاوز إنفاقهم على البحث العلمي أكثر من ١١٦ بليون دولار، وهذا المبلغ ليس لأمة العرب فيه سوى ٥٣٥ مليون دولار، أي ما يساوي ١١ في الألف من الدخل القومي لتلك البقية من العالم»[1]، أما عن

(١) محسن الندوي، أزمة البحث العلمي في العالم العربي: الواقع والتحديات
http://www.hibapress.com/details-5163.html

إسهامنا في إنتاج المعرفة فهو ضعيف جداً؛ فـ ٩٥٪ من النشر العلمي جاء باللغات الإنجليزية ثم الألمانية ثم الروسية، وهناك أكثر من ٤٠٠٠ لغة - من بينها العربية - تَبلغ حصتُها من النشر ٥ ٪ فقط[١].

وقد ذكر د/ أحمد زويل في كتابه «عصر العلم»، أن نسبة الأوراق العلمية المقدمة من الجامعات العربية لا تتعدى ٠.٠٠٠٣ ٪ من مجموع الأبحاث المحكَّمة التي تقدمها جامعات العالم، ووفقاً لإحصائيات ٢٠٠٧؛ فإن عدد الأبحاث المنشورة عالمياً بلغت ١.١٤٨.٦١٢ بحثاً، في حين لم يصل عدد الأبحاث المنشورة في الدول العربية ١٥ ألف بحثاً ، أي بنسبة ١.٣٪ من معدلات الإنتاج العالمي[٢].

المبحث الثالث: الفرقة والتعصب

أزال الإسلام الفوارق بين أفراد مجتمعه، فجعلهم يذوبون في بوتقة واحدة، من خلال وحدة ثقافية ولغوية واجتماعية، ولم تَقُمْ وِحدتُه على أساس عنصري أو جغرافي، ولم يَبْنِ اتحادَه على أساس اقتصادي، لذا فحالة الضعف التي مرت بها الأمة الإسلامية منذ القرن السابع عشر لم تكن نتيجة ضعف ذاتي في الأسس الفكرية والثقافية التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، ولكنها كانت نتيجةً لعوامل الفُرقة والخلاف والصراعات الداخلية عند ما نسِي المسلمون أدبَ الاختلاف.

---

(١) مجلة الوعي، السنة الثامنة والعشرون العدد ٣٢٤، المحرم ١٤٣٥هـ، تشرين الثاني سبتمبر ٢٠١٣م.

(٢) محسن الندوي، أزمة البحث العلمي في العالم العربي: الواقع والتحديات.

ويمكن الإشارة إلى بعض أسباب التفرق الذي زرعت بذوره في فترة التخلف والانحطاط بالنقاط التالية:

تاريخيًا: ١) فساد الحكم عند بعض الحكام، وبدا ذلك جليًا من خلال إهمالهم لمبدأ الشورى، وتنازعهم على السلطة واستعانتهم بغير المسلمين على المسلمين.

٢) الطائفية: وكانت انطلاقتها مع مقتل عثمان رضي الله عنه، وانقسم الناس إلى طوائف متناوئة متناحرة، مما شجع الخروج على السلطة ودخول النِّحَل والطوائف الفاسدة.

٣) إحياء اللغات والنزعات القومية: فبعد أن كان اللسان العربي هو لسان الحديث والعبادة والعلم؛ ظهرت دعوات لإحياء اللغات القومية، وذابت اللغة العربية في كثير من أقاليم الإسلام، وانتشر الجهل بتعاليم الإسلام.

فكريًا: ١) العصبية: وهي التحيز الأعمى لقبيلةٍ أو قوم أو عنصر أو لون، وهي العدو اللدود للوحدة سواء كانت قومية أو قَبَلية أو عنصرية، وقد نهى عنها ﷺ بقوله كما في رواية الجبير بن مطعم رضي الله عنه: «ليس منا مَن دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتَل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية» رواه أبو داود. ولما بدأت بُذورُ الطبقية بالظهور من خلال الانتساب إلى بيت النبوة؛ هدمها ﷺ فقال كما في رواية عمرو بن عوف رضي الله عنه: «سلمانُ مِنَّا أهلَ البيت» رواه الطبراني والحاكم. لقد محا ﷺ كلَّ آثار العصبية حين سمى التقاتلَ والتباغضَ الناشئَ عنها كفراً فقال: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضُكم رقابَ بعض**»، رواه الترمذي.

٢) التعصب المذهبي: من الأسباب التي فرَّقَت كثيرا من المسلمين التعصب المذهبي، وهو اتخاذ الناس مذهبًا عقائديًا أو فكريًا أو فقهيًا واتباعه والتعصب له، واعتبار ما عداه باطلاً؛ فصارتِ المذاهبُ العقائديةُ والفقهيةُ وسيلةً للتفرقة بعد أن كانت - ولا تزال - مدارس فكرية عظيمة رفدت الفكر الإسلامي بموارد لا تنضَب على مدى الأيام، لقد صار المذهب دينًا، وأصبحت مخالفتُه كفراً وفسوقًا، وانقسمت جموع المسلمين ما بين سُنة وشيعة، والسنة إلى مالكية وحنفية وشافعية وحنبلية، والشيعة إلى إمامية وزيدية وإسماعيلية، وبين هؤلاء وهؤلاء فِرق كثيرة لا يعلم تعدادَها ومآلَها إلا الله[1]. ولا ننسى دور المحتل الأجنبي في العصر الحديث، والذي رسم حدوداً مصطنعة واعتمد نهج (فرِّقْ تَسُدْ)، هذا النهج الذي عمد فيه إلى التفرقة بين المصري والبحريني والمغربي واليمني..، والمسلم العربي والمسلم الصيني..، وشجع العصبيات، وعمل على خلق هويات افتراضية وانتماءات ثانوية داخل المجتمع الإسلامي، ولم يرحل هذا المحتل حتى ترك من يَنوب عنه بالوكالة؛ سواء عن انبهارٍ بهذا المحتل أو عَمالة له، عن حُسن نية أو سوء قصْد، فصار الخلافُ والفُرقةُ إزاء هذا المحتل؛ بين فئةٍ تنادي بمقاومته، وفئة تُسبِّح بحمده، ولازال الخلاف قائمًا حول الحملة الفرنسية على مصر والشام: هل كانت نعمة أم نِقمة ؟ فنجد بعض المناهج الدراسية لبعض البلدان الإسلامية تُرسخ في نفوس النشء المقارنة الشهيرة: (مزايا الحملة الفرنسية ومساوئ الخلافة العثمانية).

(1) http://www.kuftaro.net/arabic/activity1.php?activity_no=5%20&%20 act _no=%2039

٣) التعصب الحزبي: والانتماء إلى أحزاب؛ وعُلُوِّ هذا الانتماء على ما عداه، ووصل الأمر إلى ترك المهام الجِسام والانشغال بالطعن والهمز واللمز، وببعضهم إلى الاقتتال بالأيدي والسلاح، وببعضهم إلى المهاجرة والمقاطعة، ويبين الشيخ الألباني رحمه الله: أن من آثار سلبيات التعصب للأحزاب؛ أنهم يعادون مَن لم يكن في تكتلهم وفي منهجهم ولو كان أخًا مسلمًا صالحًا، فهم يعادونه لأنه لم ينضم لهذا التكتل الخاص أو التحزب الخاص، وكذلك الهيمنة الفكرية وعدم إعطاء الحرية لأفراد الحزب، بل يصل الأمر إلى أن حزبًا منهم يفرض على كل فرد من أفراد الحزب أن يتبنوا أي رأي يتبناه الحزب مهما كان هذا الرأي لا قيمة له من الناحية الإسلامية، وإذا لم يقتنع ذلك الفرد برأي من آراء الحزب؛ فُصل ولم يعتبر من أفراد هذا الحزب الذين يقولون إنه حزب إسلامي[١].

(١) إياد محمد الشامي، التعصب للأحزاب والطوائف كما يراه المحدث الألباني
http://www.saaid.net/bahoth/33.htm

الفصل الثالث:تداعيات هذه التحديات

أفرزت التحديات بشقيها الخارجي والداخلي؛ مجموعة من التداعيات صارت هي ذاتها تحديات، على الأمة الإسلامية مواجهتها بشيء من الوعي والإرادة واستراتيجية النفَس الطويل حتى يتحقق لنا هدفنا المنشود؛ ليس فقط للحاق برَكْب العلم والذَّود عن هويتنا؛ وإنما للقيام بواجبنا كدعاةٍ إلى الله وإخراج الناس من عبادة المادة والعباد إلى عبادة رب العباد.

أولاً: الهيمنة والتبعية

ظهر مفهوم التبعية في الستينيات في إطار الاقتصاد، تفسيراً للتخلف الذي اتسم به اقتصاد بلدان العالم الثالث؛ ثم ما لبث أن امتد إلى المجالات الكونية الأخرى، حيث صار هناك مركز متبوع وأطراف أو هوامش تابعة، وقد تنبه الكثيرون لخطر هذه التنمية الموجهة إلى الخارج، حيث إنها تُفاقِم خطر التبعية بإغفالها أبعاد التنمية الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تضمن الهوية الثقافية والاستقلال السياسي، واتساقها - أن أريدَ لها النجاح- مع الخصوصيات التاريخية والبيئية والاجتماعية والحضارية، ولا سيما مع بزوغ نماذج ناجحة كدول جنوب شرق آسيا. وغنيٌّ عن القول إن التبعية الثقافية والإعلامية أخطر من التبعية الاقتصادية، لأن الأُولى تتجه إلى رهن الإرادة القومية والوطنية، بما في ذلك استتباع القرار القومي والوطني - الذي ينبغي أن يكون مستقلاً - لهيمنة المركز، وعلي رأسه الولايات المتحدة[١].

(١) رابط الموضوع http://www.alukah.net/culture/0/890/#ixzz32IVyK5fJ

وأسوأ أشكال التبعية هو التبعية الثقافية؛ حين تمتد إلى الموقف من الدين والقول بأنه لا يناسب البشرية في العصر الحديث، وأن أقصى ما يمكن الاستفادة منه فيه هو حصر دوره «كرقيب أخلاقي» دون تشريعات تُنظم حياة البشر، يقول أحدهم: «إن الإسلام كغيره من الأديان يتضمن قيماً خلقية يمكن أن تُستمد كنوع من وازع الضمير، أما ما جاء فيه من أحكام وتشريعات دنيوية؛ فقد كانت من قبيل ضرب المثل، ومن باب تنظيم حياةٍ في مجتمع بدائي إلى حد كبير، ومن ثم فهي لا تلزم عصرَنا ومجتمعنا»(١).

ويرى هؤلاء أن الأخذ بالنموذج الغربي يتطلب التخلي عن النموذج الإسلامي، فالحداثة لا يمكن أن تجتمع مع «التقليدي» أو الشرع؛ تقول ماري إلياس: «لا يمكن أن نتكلم عن مجتمعٍ حديث يضمن حقوق المرأة ويقبل في الوقت نفسه بتعدد الزوجات بحجة أن هذا التعدد قد نص عليه الشرع»(٢).

ثانياً: التغريب والاغتراب

يفيد معنى التغريب أمرين: الأول سيادة النزعة الغربية، أو الاحتذاء بالغرب (أوروبا والولايات المتحدة)، الثاني هو الاستلاب أو الاغتراب؛ أي خَلْق هُوة بين المرء وواقعه، حين تُغلَّف الذات بمشاعر الغربة والوحشة والانخلاع والانسلاخ. يقول في هذا د/ أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف: «عِشنا نحن طلابَ الأزهر تهُبُّ علينا الرياح العاتية من شرق أوروبا وغربها: فإما فتح النوافذ لهذه الرياح ومعاناة الاغتراب، وإما الانغلاق في مقررات التراث ومعاناة

---

(١) محمد أحمد إسماعيل المقدم، عودة الحجاب، القسم الأول، دار طيبة للنشر، ١٩٩٨، ص٨، بتصرف.

(٢) مجلة النهج، العدد ٥٥، سوريا، ١٩٩٩، ص٩١.

الاغتراب كذلك»[١].

ويفيد المعنى الاصطلاحي شعور المرء بأنه مبعد عن البيئة التي ينتمي إليها، فيصبح منقطعاً عن نفسه، ويصير عبداً لما حوله، يتلقى تأثيرَه المتمثل في إنجازات الإنسان ومواصفاته ونظم حياته، دون فعالية تُذكر؛ بل يزيد عليه أنه مطالب بالتخلي عن بيئته الأصلية - على اعتبار أنها من مخلفات الماضي - إذا أراد الالتحاق بالرَّكْب الجديد، وكما يقول د/ أحمد الطيب: «معلوم أن الحداثة الغربية تقتضي أول ما تقتضي قطع الصلة بالماضي وآثاره، لما انطبع في ذاكرتهم من أشكال التخلف التي عانوها في القرون الوسطي، حتى إنهم أصبحوا يفِرُّون من كل ماضٍ ولو كان ماضيهم القريب، ورغم أن هذه الحال لا تنطبق على ذاكرة المسلمين؛ لأن هذه القرون كانت تشهد على تحضرهم، فقد أبَى بعض الدارسين إلا أن يبنوا على أن الأمة المسلمة ينبغي أن تحذو في علاقتها بتراثها وتاريخها حذو الغرب في علاقته بتراثه وتاريخه»[٢]. والتغريب شكل محدد من أشكال التغير الثقافي، وبما أن التغير الثقافي هو العملية التي من خلالها تتغير العناصر المادية والأساليب الفنية والتنظيم والاتجاهات والقيم والمفاهيم ووجهات النظر في ثقافةٍ ما؛ نتيجة الاتصال بين حاملي هذه الثقافة وحاملي ثقافة أخرى مختلفة، وعلى هذا فإن التغريب هو: (التغير الذي يحدث في أي مجتمع غير غربي تحت تأثير الاتصال بجماعات أو أفراد غربيين؛ «أي أنه - التغريب -» الملية الثقافية التي من خلالها يتبنى المجتمعُ أو جزءٌ منه الثقافةَ الغربيةَ كلية أو جزئية)، وتتضمن هذه العملية نبذَ عناصر ومركَّبات من الثقافة

(١) د/ أحمد الطيب، التراث والتجديد مناقشات وردود، مجلة الأزهر، القاهرة، شعبان ١٤٣٥، ص٩.

(٢) د/ أحمد الطيب، المرجع السابق، ص١٠.

التقليدية كي يحل محلها عناصر ومركبات ثقافية غربية، وينشأ عن ذلك إحساس عميق بالدونية نابع من حاملي الثقافة التقليدية تجاه حاملي الثقافة الغربية، وللتغريب أسماء أخرى: الحداثة، المعاصرة، التطوير بما يفيد نبذ القديم لغةً وتراثًا ودينًا وقيمًا [١].

ومن هنا يمكننا القول إن الثقافة العربية تعاني هذا التغريب، فمن ناحيةٍ شهِدت محاولاتٍ رهيبةً لفك العُرى الوثيقة بينها وبين تاريخها وتراثها، وبينها وبين وظائفها التاريخية والعضوية والنفسية، ومن ناحية أخرى «شكلت ثقافة الغرب بالنسبة للعرب والثقافة العربية، الاستعلاءَ والتكبر تعبيراً عن موقع الغرب، وكلما اتسعت حلقات وعي الذات القومية والوطنية إزاء الآخر الغربي، توضحت بجلاءٍ أكبرَ حدةُ المعاناة التي تواجهها الثقافة العربية في مواجهة التغريب، احتذاءً بالغرب، أو سلبًا واغترابًا عن الهوية والخصوصيات الثقافية بتأثير الغرب نفسه، منتِجِ وسائل التغريب الضخمة»[٢].

والاختراق الثقافي من أخطر الوسائل التي تؤدي إلى تعميق الاغتراب الثقافي وفقدان الخصائص القومية المميزة لثقافات الشعوب التي تتعرض وتستجيب لهذه التأثيرات؛ لأنه يعمل على نشر أفكار ومعتقدات تشكك في معتقدات وقيم البيئة الأصلية من جهة، وتقديم ثقافته هو على أنه البديل المنقذ من جهة أخرى، وكان هذا واضحًا منذ نشأة التعليم الأجنبي في عالمنا الإسلامي وحرص القائمين على شؤونه -كأحد الأدوات للتغريب الثقافي- على طرح الثقافة الغربية ونمط الحياة الأوروبية كأنموذج يُحتذى به، كما تظهر قمة التغريب بتغريب اللسان لقطعه عن اللغة العربية الفصحى «لغة القرآن» من

(1) http://telc.tanta.edu.eg/hosting/pro14/containt/L9-10.htm

(٢) رابط الموضوع http://www.alukah.net/culture/0/890/#ixzz32IVyK5fJ

خلال زعزعة الولاء للغة العربية بادعاء صعوبة قواعدها، وإشاعة العامية والكتابة بها، وتبسيط قواعد اللغة إلى حد الإفساد، ومحاولة إحلال لغات أجنبية محل الفصحى، ويظهر أثره أيضاً في تحقق هدفه الأساس في التبني الكامل للقيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية للمدنية الغربية؛ بما نراه في التغير الذي طرأ على عادات وتقاليد وآداب مجتمعاتنا.

ثالثاً: الهزيمة النفسية

صدق ابن خلدون عندما وصَف قضية الغزو الثقافي بقوله: (إنما تبدأ الأمم بالهزيمة من داخلها عندما تشرع في تقليد عدوها)، وهذا ما يفعله مُرَوِّجو النظام العالمي الجديد ومهندسو العولمة من تهيئة الشعوب بالهزيمة والاستعداد للتسليم بما يريدون فرضه على الشعوب والحكومات، وذلك من خلال غزو ثقافي وإعلامي متعدد الجوانب؛ من شأنه الإغراق في قيم اجتماعية وثقافية غير ملائمة، كما يؤدي- بوعي أو بدون وعي- إلى الإحساس بالاغتراب الثقافي؛ ومن ثم الهزيمة النفسية والسلبية والهروب من التصدي لواقع الحياة، وتتعدد صور هذه الهزيمة النفسية، وأخطرها مَن اتخذ موقفاً رافضاً للتراث الإسلامي؛ سواء كان لمعلوماته الجزئية أو لاعتقاده الشامل، وسواء كان لانبهاره بالغرب أو لإحساسه بدونية تراثه، وتزداد خطورة هذه الفئة عندما تُكوِن رؤيةً رافضةً لهذا التراث ثم تُجري لها من عمليات التعميم الكثير؛ ولا سيما في الساحات الأكاديمية والثقافية، أي عند النخبة المتصدرة في التعليم والإعلام وإنتاج الخطاب العام لعامة الناس «عبر عقود القرن المنصرم؛ في أقسام السياسة والتاريخ والفلسفة والاجتماع والأدب والقانون والتربية في جامعاتنا، وكثير من الكتب والصحف والمجلات ذات الطابع الثقافي، والبرامج الإعلامية الثقافية، وما يسمى بالدراما التاريخية الدينية، تجد تلك الجهات ترسخ هذه الرؤية

السلبية في عقول الناشئة والأجيال الصاعدة، وتحفرها في أذهانهم»[١].

ويعتبر د. نصر عارف[٢] من رواد الفكر الذين أشاروا إلى هذا النوع من

---

(١) راجع: د. عماد شاهين، من حوارات القرن: دراسة حالة مصر؛ (في) الأمة في قرن: عدد خاص من «أمتي في العالم: حولية قضايا العالم الإسلامي»، الكتاب الثاني، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية ومكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ص٤٦١-٥٠٢. ود. محمد عمارة، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية، المرجع نفسه (الأمة في قرن)، ويذكر في ذلك: فعاليات الحوار الإسلامي-العلماني والقومي-الإسلامي، وحوارات التراث والمعاصرة، وراجع: دراسة تجديد الخطاب الديني من الحملة الفرنسية إلى الحملة الأمريكية، قراءة في قرنين: خطاب الهوية وهوية الخطاب، د. سيف الدين عبد الفتاح وآخريْن، ودوران حوارات القرن حول سؤال البداية والمنطلق والهوية والإطار المرجعي لأفكار النهضة، والمنافسة على امتلاك زمام العصر مع الغرب الممكَّن له، وحول الشرق الإسلامي التائه المتعثر.

(٢) وقد أكد أعلام في السياسة وفي الفكر الإسلامي على هذه الحقيقة، نذكر منهم على سبيل المثال: شهادة د. علي الدين هلال: «إن الاهتمام بالبحث في تأصيل الإسلام وتأصيل الفكر الإسلامي وفكر المسلمين في المجالات السياسية والاقتصادية؛ ينبغي أن يكون همًا مستمرًا بِغضِّ النظر عن أحداث سياسية طارئة، أن يتسم بالتواصل، لأن ما لا نعرفه عن هذا الإسهام هو أكبر بكثير مما نعرفه، وقد قرأتُ في كتاب للدكتور نصر عارف أوضح فيه بالوثائق والتوثيق؛ أن ما قرأناه وما نعرفه وما نتفق عليه ونختلف بشأنه من مصادر الفكر الإسلامي السياسي، هو في الواقع ربما أقل من ١٠ ٪ مما هو موجود ولم نتعامل معه بالبحث والتحليل والنقد والتأصيل، هناك إذن مهمة كبيرة في تغطية وتوثيق المخطوطات المختلفة المتعلقة بهذا الشأن وبحثها وتحليلها والدراسة التفصيلية بشأنها، شأنه في ذلك كشأن أي عمل أكاديمي» راجع: أ. د. نادية محمود مصطفى، أ. د. سيف الدين عبد الفتاح (محرران)، العلاقات الدولية بين الأصول الإسلامية وبين خبرة التاريخ الإسلامي، أعمال ندوة مناقشة مشروع «العلاقات الدولية في الإسلام»، المجلد الأول، جامعة القاهرة، مركز البحوث والدراسات السياسية، ٢٠٠٠، شهادة المستشار طارق البِشري حول العقل الأخلاقي العربي: نقد لنقد =

الهزيمة النفسية وتداعياتها عند التعامل مع التراث؛ بدءًا من الإهمال، إلى التعامل القاصر والمستخف والمتساهل، إلى التعامل العشوائي المتسربل بشكل علمي زائف، إلى إصدار تعميمات سلبية بخصوص هذا التراث وتكرارها واجترارها، وتوصّل د. نصر لنتائج خطيرة أهمها:

١- أن جميع من كتب عن التراث السياسي الإسلامي أو إحدى ظواهره؛ لم يطَّلع على أكثر من (٦٪) من المصادر المباشرة لهذا التراث، في حدود ما أحصاه المؤلف.

٢- أن أكثر الكتب التي لعبت دَورًا محوريًّا في حياتنا الثقافية المعاصرة وأثرت على تصورات الكثيرين ومواقفهم من الفكر السياسي الإسلامي؛ لم تستقرئ «شيئًا» من مصادر هذا التراث، وضرب المؤلف أمثلة بكتاب الشيخ علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) وكتابات د. محمد أحمد خلف الله، ود. محمد حسين هيكل[(١)].

٣- أن ٨٠٪ ممن كتب في علم السياسة الإسلامي- على سبيل المثال - لم يرجع لأكثر من عشرة مصادر، أي ٣.٥٪ مما توصلت إليه هذه الدراسة،

=

الجابري: «ولا ننسى في هذا الصدد أن نصر محمد عارف ذكر في كتاب مصادر التراث السياسي الإسلامي أنه توصل إلى أن ثمة ٣٠٧ من المصادر التراثية المباشرة في علم السياسة كما عرفه المسلمون، وأنه لم يطبع من هذا العدد حتى الآن إلا ١٠٥ كتابًا، وأن منها ما لا يزال مخطوطًا في ١٢٧ كتابًا، وأن الباقي لم يُعرف بعدُ مكانٌ محدد له». المصدر: مجلة المستقبل العربي ٢٧٦/ ٢٠٠٢، من موقع: «المركز المغاربي» الإلكتروني.

(١) د. نصر عارف، مصادر التراث السياسي الإسلامي، مجلة المستقبل العربي ٢٧٦/ ٢٠٠٢، ص٤٠، ص ٦٥.

رغم أنهم يكررون المصادر نفسها دون اختلاف بنسبة تكرار كبيرة[١].

٤- أن العشوائية والانتقائية والاستسهال واستقراب المصادر والمراجع مكانيًّا (مكتبة، مدينة، قُطْر ما..) والتأثر بالمنشور والمشهور والمحقق، وربما بما اهتم به المستشرقون وأذاعوه؛ هي العوامل التي حكمت التعامل المعاصر مع مصادر التراث الثقافي الإسلامي[٢].

رابعاً: التطرف

إن غزو ثقافة بعينها ومحاولتها الهيمنة وابتلاع الثقافات الأخرى والحلول محلها، يهدد بظهور جيل منقطع الجذور يستبيح الاعتداء على القيم، ويهدد أيضاً بِردِّ فعلٍ قد يكون مبالغًا فيه كنوعٍ من أنواع المقاومة للحفاظ على الهوية، وهو الانغلاقُ على الهوية والدفاع عنها ليس بالفكر وإنما بالسلاح، وكما قال د/ جعفر عبد السلام: «وجدتِ الشعوب الضعيفة نفسَها أسيرة لهذا التلقي دون أن يكون لها دور إيجابي، مما يهدد باقتلاع جذورها واغتيال ماضيها وابتسار حاضرها ومستقبلها، بل وفقدت كثير من الحكومات سيطرتها على قطاعات عديدة من مواطنيها، فأدى هذا الوضع إلى ظهور جماعات عِرقية ودينية رأت فيما يحدث نوعًا من الغزو الفكري الذي يستهدف محو شخصيتها ليجعلها مسخاً من شخصية الآخرين، بل من هذه الجماعات مَن رفع السلاح وأطلق الرصاص للحفاظ على الهوية»[٣].

وثمة ملاحظة مهمة نشير إليها، وهي البَون الشاسع بين تعاليم الإسلام وما

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٥- ٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٧- ٦٩.

(٣) د/ جعفر عبد السلام،مرجع سبق ذكره، ص١٨.

يطلقون عليه الآن مصطلح «الإرهاب» والذي يُرجعه البعض -دون وجه حق- إلى تعاليم دين معين؛ أو ممارسات حضارة بعينها، من قبيل محاولات بعض مفكري الغرب وبعض حكوماته إلصاقَ تهمة الإرهاب بالحضارة الإسلامية وتعاليم الدين الإسلامي.

الفصل الرابع: سبل المواجهة

لا بد أن نعي حقيقة أن الأخذ عن الغرب في تكنولوجيته وعلمه ضرورة، أما تقليده فيما يسلكه من نمط اجتماعي وقيم إنما يزيد في محنتنا الحضارية، ويبطئ بل وقد يشل حركتنا، ويُجهز على البقية الباقية من مقاومتنا، لذا فإن نقطة الانطلاق لمواجهة هذه التحديات وتداعياتها الخروج من دائرة الاكتفاء بالتغني بالماضي وأمجاده - وهو مطلوب الاعتزاز به- وإنما البداية العلمية للتغيير تعني البدء بالواقع.

١- الصدق مع النفس والواقعية:

هو الخطوة الأولى نحو امتلاك أدوات التحكم في الآثار المدمرة للغزو الثقافي وما يستتبعه، وذلك بأن نعترف بأننا لا نملك القدرات الكافية؛ الأمر الذي يستوجب عملاً دؤوبًا لتعويض الفارق الزمني والحضاري للتخفيف من أثر العولمة والتقليل - قدر الإمكان- من الخسائر مع شيء من الوعي بأية مرحلة نعيشها، ولا يكون جُلُّ جهدنا التغني بالأمجاد التاريخية؛ فـ«المقومات الثقافية والقيم الحضارية التي تشكل رصيدنا التاريخي؛ لن تغني ولن تنفع بالقدر المطلوب مادامت أوضاع العالم الإسلامي على ما هي عليه»[١]، وحيث إننا لن نقبل بالعولمة كحتمية تاريخية، فعلينا أيضا ألا نختار الخيار السهل وهو معارضتها، وإنما علينا فهْمُ الموقف فهمًا صحيحًا بعيداً عن أي تهوين أو تهويل، والعملُ على تعظيم مصالحنا حيالها وتحجيم أضرارها، وعلينا مراجعة الذات وإصلاح الأخطاء.

---

(١) التويجري، العولمة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي، سلسلة فكر المواجهة، رابطة الجامعات الإسلامية، ٢٠٠٤، ص١٠٦.

٢- امتلاك الإرادة:

من المعروف أنه لا يمكن إنجاز أي عمل إلا بتوافر شيئين: الإرادة والقدرة، وهناك من يشخص الأزمة الحضارية التي نعاني منها على أنها أزمة إرادات لا أزمة قدرات، وعلى هذا فإن نقطة الانطلاق لمجابهة التحديات هي امتلاك الإرادة، وحينها سوف تتاح الإمكانات، وفي هذا يقول د/ عبد الكريم بكار: «الإرادة هي الأهم، وذلك لأن المرء حين يعزم على شيء على نحو صادق وقوي؛ فإنه يسعى إلى توفير الإمكانات المطلوبة لتحقيقه، وإن الإرادة الصلبة تكشف عن الفرص الكامنة، بل تصنعها في بعض الأحيان، كما أنها تستنفر القُوى المعطَّلة الخامدة، ولو أننا تأملنا في الإنجازات الحضارية الكبرى - لدى كل الأمم وفي كل العصور- لوجدنا أنها مدينة للعزيمة والإصرار، ولا يُغني عنهما علم ولا موهبة، فقدرة الناس على تنمية إراداتهم وتقويتها؛ أعظم بكثير من قدرتهم على تنمية الإمكانات والطاقات التي لديهم، وأعظم من قدرتهم على تحسين بيئاتهم وظروفهم»[١].

ومن بين المعطيات الحضارية المهمة للدين الإسلامي: إسهامه الواضح في تقوية الإرادة، لذا لابد من التمسك به؛ لأن: «تقوية الإرادة قد تستلزم حرباً داخليةً للمرء مع نفسه قبل مجابهة التحدي الخارجي، حيث يجد المرءُ نفسَه مطالَبًا بالوقوف ضد المغريات والشهوات، وضد بعض طباعه وعاداته الرديئة، وهذا ليس مهمة الفرد وحده، وإنما على المجتمع أن يحدد لأفراده السويَّةَ المطلوبةَ من صلابة الإرادة حتى يكونوا لائقين اجتماعياً، والمجتمع يفعل ذلك بدافعٍ من عقائده، وعلى هَدي أولوياته واهتماماته»[٢].

---

(1) http://wfsp.org/articleslist/11717----1

(2) http://wfsp.org/articleslist/11717----1

٣- الاعتزاز بالرصيد الثقافي والحضاري:

التراث[١] القديم لكل أمة هو روحها ومصدر قوتها الأساس ومحرك نهضتها للأمام، بما يمدها به من تصورات للعالم وقيمٍ للسلوك، وكما يقول د/ التويجري «إن حقائق الأشياء تؤكد أن العولمة لا تمثل خطراً كاسحاً إلا على الشعوب والأمم التي تفتقر إلى ثوابتَ ثقافيةٍ، أما تلك التي تمتلك رصيداً ثقافياً وحضارياً غنياً؛ فإنها قادرة على الاحتفاظ بخصوصياتها والنجاة من العولمة وتجاوز سلبياتها»[٢].

وهذا الاعتزاز يمثل حائطَ صدٍّ أمام الأمة يقيها شر الهزيمة النفسية، وكما يقول د/ جلال أمين: «إن الهزيمة النفسية أمام العولمة تأتي من اعتبار ظاهرة العولمة حتميةً، وهذا أمر مبالغ فيه، وهو لا يعبر عن حقيقة هذه الظاهرة، لأن اعتبار ظاهرة العولمة حتميةً قد لا يكون في الحقيقة أكثر من اعترافِ المرء بأنه لم يعد لديه طاقة باقية للمقاومة وأصبح مستعداً للتسليم»[٣].

٤- التكامل والشمول:

كما أن ظاهرة العولمة الثقافية تتركب من منظومةٍ متكاملةٍ من النظم السياسية والاقتصادية والإعلامية والتقنية، فكذلك المواجهة المطلوبة ينبغى أن تكون على شتى الأصعدة، والمنهج الذي ندعو إلى اعتماده في معالجة المشكلات الناتجة عن اكتساح نظام العولمة للهوية والثقافة الإسلاميتين في

---

(١) نفرق هنا بين تراثنا كمبادئ خلاقة في حياة الأمة، وبين الممارسات الخاطئة التي تُحسب على أتباع التراث لا التراث نفسه.

(٢) التويجري، العولمة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي، مرجع سبق ذكره، ص١٠٠.

(٣) د/ جلال محمد أمين، العولمة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨، ص٤٢.

هذه المرحلة الدقيقة؛ يقوم على قاعدة التكامل والشمولية في البحث عن الحلول للأزمات الحضارية والمشكلات الثقافية، بحيث لا يمكن الفصل بين الأوضاع السياسة والاقتصادية والاجتماعية، وبين الأوضاع الثقافية والفكرية والإعلامية، فغالبية الدول في عالمنا الإسلامى تصنَّف ضمن الدول التى تعيش تحت خط الفقر، إلى جانب المشكلات السياسية التى تَعُم معظم البلدان الإسلامية، والتى تَنتج عن الأزمات والصراعات والحروب، مما يتسبب في عدم الاستقرار وفي ضياع فرص التنمية وفي هدر الطاقات والقدرات، ولا مجال للحديث عن الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلاميتين في ظلّ هذه الأوضاع، فالمجتمعات الضعيفة المتخلفة عن رَكْب التقدم الاقتصادي والعلمى والتكنولوجى، لا تَقوَى على الدفاع عن خصوصياتها الثقافية وموروثها الحضاري، ولا تملك أن تصدّ الغارات الثقافية والإعلامية التى تواجهها من كل حَدَب وصَوب، ولن تستطيع أن تقف صامدةً في معترك السياسة الدولية بأمواجها المتلاطمة، حفاظاً على مصالحها الحيوية[1].

٥- السعي نحو جذب العقول المهاجرة:

نجح الغرب في استقطاب أبناء المسلمين المبرَّزين في العلوم والتقنية والمعلوماتية، القادرين على الإنتاج العالمي، وهؤلاء قد استثمرنا في إعدادهم الأكاديمي ملايين الجنيهات، ولكن عجزنا عن إعداد البيئة الاجتماعية والثقافية المناسبة لهم لمواصلة هذا التميز، وبقدر إسهام هؤلاء في دفع بُلدان الغرب إلى التقدم والرفاه؛ بقدر ما سلب بلادَنا الإسلامية طاقاتها وعرقل سعيها نحو التقدم، وتستنزف الهجرة والتهجير القسري إسهام العلماء العرب في الناتج

(١) د/ عبد العزيز التويجري، موقع: الإسلام اليوم.

القومي لبلدانهم، حيث يعيش الكثير منهم في نصف الكرة الأرضية الغربي، وخطورة هجرة العقول العربية وانعكاساتها على الأوضاع العلمية وعلى البحث العلمي بشكل خاص؛ هو ما ورد في إحصائية أصدرتها الجامعة العربية عام ٢٠٠٩ في تقرير بعنوان: (هجرة الكفاءات.. نزيف أم فُرص؟)، وفيه حقائق مؤلمة تعكس حجم الإهدار للعقول العربية، ويؤكد التقرير ما يلي:

- ارتفعت نسبة المهاجرين من حاملي الدرجات العلمية إلى ٥٠٪ من مجموع المهاجرين في الفترة من ١٩٥٠-٢٠٠٠، وارتفع عددهم خلال الفترة نفسها من ٩.٤ مليونًا إلى ١٩.٧ مليونًا.
- في نفس الفترة زاد معدل المهاجرين بين ثلاثة إلى تسعة أضعاف في دول مثل اليمن وجيبوتي والسودان وموريتانيا.
- تستقبل فرنسا ٤٠٪ من العقول العربية المهاجرة، والولايات المتحدة ٢٣٪ ، وكندا ١٠٪.
- نسبة الأطباء العرب في دول الاتحاد الأوروبي بلغت ١٨.٢٪.
- ٥٤٪ من الطلاب العرب الذين يَدرسون في الخارج لا يعودون إلى البلد الأم.
- تسهم البلدان العربية بنسبة ٣١٪ من مجموع هجرة الكفاءات من الدول النامية.
- الخسارة المالية الواقعة على الدول العربية الناتجة من هجرة الكفاءات تبلغ ٢٠٠ مليار دولار[١].

---

(١) محسن الندوي، أزمة البحث العلمي في العالم العربي.. الواقع والتحديات.
http://www.hibapress.com/details-5163.html

٦- السعي نحو تحسين صورة المجتمعات الإسلامية وإبراز منظومتها القيمية:

وهذا يتطلب فريقًا واعيًا من الباحثين الذين يمتلكون القدرة على إصدار تقارير علمية مستندة إلى بيانات إمبريقية تعبر عن قيم العالم الإسلامي؛ بديلاً عن التقارير الأممية التي تجريها هيئات الأمم المتحدة، والتي تتحول بوجهٍ عام - نتيجة اعتمادها لمعايير غربية بالأساس- إلى مجموعةِ تُهَمٍ معلَّبةٍ وجاهزة ومسبقة النتائج ضد الدول الفقيرة التي تُجرى فيها الدراسات، كالدراسة التي أُجريت عن مستوى البؤس في العالم، وكانت نتيجتها أن الدول الفقيرة بائسة، وأن الدول الغنية راغدة العيش؛ وذلك لأن هذه الدراسة اعتمدت مؤشراتٍ مثل كَمية المياه المتوافرة للغرب، وأهملت مؤشرات الانتحار والإدمان والأمراض المنتقلة جنسيًّا والشذوذ وغيرها.

والدراسات المتعلقة بالأشخاص المحتاجين إلى دُور إيواءٍ كالمسنين؛ تهمل عاملاً ثقافيًا مُهِمًا هو تمسك الأسرة العربية برعاية من يحتاج من أعضائها، بما يعني أن وجود دار مسنين إنما يعني تخلي الأهل عن هذا الدور، وزيادة هذه الدور مؤشر خطير على تراجع قيم الرحمة والتكافل، إلا أن هذه الدراسات - بناءً على المعايير الغربية- خرجت بنتيجةٍ مؤداها أن النقص في دور الإيواء هو علامة من علامات البؤس في هذه الدول، فهذه الدراسات الأجنبية تتعامل مع المجتمع العربي متجاهلةً أن لكل مجتمع قيمه الخاصة، ومن ثم تتجاهل في تحليلها للنتائج عوامل ومؤشرات حيوية، فتصل إلى تشخيص خاطئ لأزمات هذا المجتمع وحاجاته، الأمر الذي يستتبع اقتراح حلولٍ تكون نتائجها كارثيةً في حال تطبيقها[1].

---

(١) منشورة في ٢/ ٦/ ١٩٩٧ http://mostakbaliat.com/link138.html

وكذلك تقرير التنمية البشرية السنوي الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي - والذي صار مَعْلَمًا مُهِمًا من معالم الحوار والنقاش بشأن أي جدول أعمال للإصلاح يُطرح لتحقيق تنمية بشريّة في المنطقة العربيّة - نجده يتناول مقاييسَ محددةً للتنمية البشرية، رتَّب على أساسها الدولَ غاضًّا الطرف عن التنوع الثقافي الذي قد يعتبر ما هو مقياسٌ للتقدم في بلدٍ ما؛ مؤشراً لتراجع بعض القيم في بلد آخر، والمعايير التي اعتمدها في تقريره عام ٢٠١٠ على سبيل المثال: الفوارق بين الجنسين، معدل المشاركة في القوى العاملة، ومعدل انتشار وسائل منع الحمل[١].

٧- تحرير العقل والعلم:

إذا أردنا تجاوز محنتنا الثقافية؛ فعلينا بما يلي:

١- إعمال النظرة النقدية لكل ما يُعرض علينا قبل ترسيخه في نفوس النشء، على أن تكون هذه النظرة من منظور إسلامى، لا تستبعد الإرث المعرفي الغربى في التحليل، والأهم من ذلك تحرير مناهجنا الدراسية من نظرياتٍ غربيةٍ عفا عليها الزمن وثبَت خطؤها في بلاد المنشأ، ومع ذلك لدينا إصرار عجيب على تناولها كمسلَّمات! فلابد من إعادة النظر في مناهج القانون والاقتصاد والسياسة والتربية والتاريخ والاجتماع؛ لتحريرها من التبعية من جانب، ولكشف وجوه أصالة الفكر الإسلامى في هذه الميادين من جانب آخر؛ كالدراسة التى أجراها د/ نصر عارف حول مفهوم التنمية من منظور إسلامي مقارنة بالمنظور الغربي، وكيف

(١) لمعرفة مزيد من التفاصيل، انظر محتوى هذا التقرير:
http://hdr.undp.org/en/media/HDR_2010_AR_Complete_reprint.pdf

اختلفت الدلالة بالنسبة للسياق المعرفي والخصوصية والعالمية في نظريات التنمية[١].

٢- العمل بدعوة الإسلام إلى تحرير العقل من كل أَسْر يعوقه، بإعمالها في تحرير ثقافتنا أولاً من الأباطيل والخرافات التى تَرسخ في أذهان الناس ويتوارثونها عبر الأجيال، فالإسلام يريد من الفرد ألا يصدق كل ما يقال له إلا ما قام عليه برهان يقينى ساطع.

٣- السعى لتحرير العقل من أَسر التقليد الأعمى سواء في اتباع الآباء والأجداد أو اتباع الأمم المعاصرة، فالعقول وهبنا الله إياها لا لنعطلها؛ وإنما لنُعمِلها في تمييز الأمور بعضها عن بعض وغربلة الغث من السمين وتحريرها من أَسر الأشخاص، يقول د/ يوسف القرضاوي: فمن العجب أن ترى بعض الناس في مجتمعاتنا تغلق عقولها، ولا تسمح لها بأن تنفتح يوماً للعمل والتفكير، لأنه قد أراح نفسه من ذلك حيث حدد موقفه مقدماً بأن يكون مع الأكثرية: إن قالوا نعم فهو نعم، وإن قالوا لا فهو لا، فليس له موقف، وهذا ما حذرنا منه النبى ﷺ بقوله: «**لا تكونوا إمعة...**»[٢].

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذا الأنموذج ، انظر: د/ نصر محمد عارف، التنمية من منظور متجدد، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، مصر، ٢٠٠٢.

(٢) د/ يوسف القرضاوي، موقف الإسلام من العقل والعلم، قضايا إسلامية، عدد ٢١٥، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ٢٠١٣،ص٢٦.

٨- فتح باب الحوار مع من يتفق معنا في الرؤى حتى من بلاد الغرب ذاته:

«إذا كان الاستعمار بصورته السابقة يعني تحكم الإنسان الأبيض بالمجتمعات الملونة الأضعف قوة، فإن العولمة تعني سيطرة الدولة البيضاء الأقوى على كل ما عداها بما فيها الدول الاستعمارية البيضاء الأخرى»[(١)]، ترتب على ذلك أن جُوبهت العولمة بمقاومات متعددة في الوقت الراهن؛ ليس من بعض الدول النامية فقط، بل من داخل البلاد المتقدمة أيضاً، فهناك فئة ترى في العولمة تهديداً للهوية القومية وللاستقلال الاقتصادي، لدرجةٍ تجعل الدولةَ ذاتها في رأيهم عاجزةً عن التعامل معها؛ بل بعضهم يرى في العولمة تهديداً لنمط الحياة ذاته.

وفي كلمة للرئيس الفرنسي «جاك شيراك» بمناسبة اليوم الوطني الفرنسي ١٤من يوليو ٢٠٠٠؛ قال فيها: «إن العولمة بحاجة إلى ضبطٍ لأنها تُنتج شروخاً اجتماعيةً كبيرة، وهي وإن كانت عاملَ تَقدُّم؛ فهي تثير أيضاً مخاطر جدية ينبغي التفكير فيها جيداً، وهذه المخاطر ثلاثةً: أولها: أنه تزيد ظاهرة الإقصاء الاجتماعي، وثانيها: أنها تنمي الجريمة العالمية، وثالثها: أنها تهدد أنظمتنا الاقتصادية»[(٢)].

لذا يمكننا الاستفادة من الآليات التي تتبعها الفئة التي تنظر للعولمة باعتبارها هيمنةً للقيم الأمريكية، ومن ثم تَصوغ أُطروحات تتعلق بنجاح

---

(١) مصطفى محمد الطحان، العولمة تعيد صياغة العالم، المركز العالمي للكتاب الإسلامي، الكويت، ١٩٩٩، ص١٥.

(٢) محمد السماك، محاضرة بعنوان (مستقبل الصحافة العربية في ظل العولمة)، مجلة الحوادث، العدد ٢٣١٠، ٩/ ٣/ ٢٠٠١، ص٦٣.

الخصوصيات الثقافية في مواجهة الهيمنة الأمريكية، حيث تقوم تلك الدول المهددة بعملية إحياء ثقافي واسع المدى الذي تُدمج فيه الأصالة مع المعاصرة، ويمكن صياغة أطروحات تتعلق بالانحدار المتوقع للقوة الأمريكية، وبالتالي تعديل مسار العولمة لكي لا تصبح حِكراً في إدارتها لدولة واحدة هي الولايات المتحدة الأمريكية.

الخاتمة

حاولَت هذه الدراسة أن تُطلع القارئَ المسلمَ على بعض المشكلات والتحديات التي تواجهها المجتمعات الإسلامية فيما يتعلق بإشكالية التراث الثقافي والغزو الفكري من ناحية، وأبرز التحديات الداخلية التي تعانيها المجتمعات العربية والإسلامية من ناحية أخرى، كما تناولت الدراسة عدداً من التداعيات التي خلَّفَتْها هذه التحدياتُ من ضعف الثقة بالنفس والهزيمة النفسية والشعور بالاغتراب، وانتهت الدراسة إلى اقتراح مجموعة من الوسائل كمحاولةٍ للخروج من الأزمة الحضارية التي نحن بصددها، يتبقى لدينا ثلاث رسائل نَوَدُّ توجيهَها إلى بني جلدتنا:

الرسالة الأولى للفئة التي تُهوِّن من شأن العولمة:

إن الأمر جدُّ خطير، فنحن نواجه تحديات ثقافية ونظريات وأفكار لم تَعد وقفًا على المؤمنين بها في الغرب؛ إنما صارت هيمنةً دوليةً في شكل صياغات قانونية ووثائق تريد أن توطد أركان ثقافة المهيمن (القطب الأوحد ومَن في فلكه) ليس على حساب ثرواتنا المادية وحدها؛ وإنما على حساب قيمنا وعقائدنا، وإذا استمرت العولمة في التصاعد على هذه الوتيرة مدفوعةً بغطرسةِ الهيمنة والإصرار على قهر إرادة الشعوب وإكراهها على تبني سياسات اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية وتعليمية وإعلامية تتعارض مع مصالحها؛ فإن ردود الأفعال ستكون غير مأمونة العواقب، الأمر الذي يضع المسؤولية على عاتق الجميع للمشاركة في عمل فعَّال يخفف من غلَواء هذه النزعة الاستبدادية؛ بفتح نوافذ الحوار ومبادرات الحفاظ على التنوع الثقافي للأمم.

الرسالة الثانية للفئة التي تريد السير في ركْب الحداثة وتطويع الدين والثقافة لها:

أن ثمة فرقًا بين التجديد والتغيير، فالتجديد حفاظٌ على الأصول وإضافة إليها ونفْض الغبار المتراكم عليها، مع الفصل بين المبادئ والممارسات، والتغيير هدْمٌ بادعاء جمود الإسلام وعدم قبوله للتغيير والبدء من جديد ومن فراغ، وهذا وإن تَسمى بأي اسم فإنما هو من قبيل تزييف الوعي وخداع الجماهير، لأنهم أهدروا الكثير من دلالات النصوص اللغوية والتاريخية ظنًا منهم أنهم جاؤوا برؤىً جديدةٍ تحُل إشكالَ الأصالة والمعاصرة، بينما زادوه اضطرابًا وغموضًا.

الرسالة الثالثة للفئة التي تريد التحصن بالهوية عبر الانغلاق فيها:

إن الحفاظ على الهوية لا يعني الجمود في إطارٍ من الموروث القديم، بل علينا أن نجعلها عمليةً تتيح لمجتمعاتنا أن تتطور دون أن تفقد هويتها الأصلية التي تعتز بها أيَّما اعتزاز، وأن تتقبل التغييرَ دون أن تغترب فيه، إن التراث براءٌ منَّا، وليس مسؤولاً عن أزماتنا المعاصرة، بل على النقيض من هذه الدعوى أننا لا نستلهم التراث في سلوكياتنا، فقلَّما نجد مجتمعًا يضبط حياته على الحلال والحرام، إننا بحاجة إلى التجديد شريطةَ الوضوح والفصل بين مجال الثوابت والمتغيرات، والشمول والبعد عن التجزئة، والذي يتضح بجلاء في قصر ارتباطنا بالتراث على العبادات، بينما يختفي في مجال المعاملات والأنظمة والتشريعات، إننا بحاجة إلى التنقيب عن التراث الحقيقي وتنقيته مما شابهُ من فُهومٍ قبلية منغلقة تسربلت بالشرع، فهو الحلقة المفقودة لاستعادة توازن المسلِّمين في العصر الحالي.

والحمد الله أولاً وآخِراً، وصلَّى الله وسلَّم وبارَك على محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.